إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد التاسع – ربيع ١٣٩٢ش/ آذار ٢٠١٣م
صص ٦٤ ـ ٤٩

صور الكناية فی الكلام النبوی الشريف

حجت رسولی*
علی أكبر نورسيده**

الملخص

التعبير بطريق غير مباشـر يعطی المسـألة عمقا وجلالا، ويلبسـها طـراوة وجمالا. الأسلوب الكنائی يتضمن بلاغة وبراعة فی الكلام، ونكتاً وفوائد فی البيان لاتتحقّق تلك اللطائف بالتعبير المباشر. يرمی هذا المقال إلی البحث عن فن الكناية ومظاهرها فی الكلام النبوی حتی نبيِّن نبذة من بلاغة النّبی (ص) وفصاحته والإجابة عن الأسلة التاليـة، ومنها ماهی مكانة الكناية عند النبی(ص) وكيف كان يسـتخدمها؟ كم كان عـدد الكنايات، وماهی الكناية التی يسـتخدمها النبی(ص)، وماهو السـبب فی هذا الأمر، وكم كانت تسـاعد الكنايـات لتقريب المعنی إلی ذهن المسـتمعين؟ وطريقنا فی هـذا العمل هو اختيار عدد من كلمات النبی المرسـل(ص) الذی وجدنا فيها فن الكنايـة والإفصاح عن البيان النبوی فی هـذه الأمثلة، وعرض فن الكناية وفصولها المتنوعـة وظهورها عند أفضل من نطق بالضّاد. رجعنا إلی عدد من المصادر البلاغية التی قاموا بدراسة البيان النبویّ (ص) منها المجازات النبوية للشريف الرضی، خلال الحديث عن فنون الكناية، وسـعينا فی تكميل ما عرضوا المتقدمون فی هذا المضمار والإفصاح الأكثر عن طوايا كلام النبی المرسل(ص).

الكلمات الدليلية: الكناية، الكلام النبوی، الصورة الفنية، الصورة الكنائية.

---

*. أستاذ مشارك بجامعة الشهيد بهشتی، طهران، إيران. htrasouli@hotmail.com
**. أستاذ مساعد بجامعة الشهيد بهشتی، طهران، إيران.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د.حسن شوندی
تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/٢١ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٢/١١ش

المقدمة

الكنايــة لون من ألوان التعبير تعرض فيه الحقائق عرضاً غير مباشــر، لأنه كما أنّ بعض مقامات الكلام تقتضى التصريح بالغرض والتعبير عن المراد مباشــرة، فإنّ هناك أيضاً ما يســتدعى الإشــارة إلى المطلوب مــن بعيد، فتكون فى النفــس أوقع وأحلى، وعند بيان الغرض أنسب وأولى. يرى الجرجانى: «من المركوز فى الطبع أنّ الشىء إذا نيل بعد طلب له أو الاشــتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف.» (الجرجانى، ١٤٠٣ق: ١٥٨) فالأسلوب الكنائى يتضمنّ بلاغة وبراعة فى الكلام، ونكتاً وفوائد فى البيان لاتتحقق تلك اللطائف بالتعبير المباشر. هذا الفن من الفنون التى يوزن بها مستوى كلام البليغ، ومدى بلاغتة وجودته. كانــت للنّبى(ص) كلمات غــير قليلة نجد فيها ملامح الكناية. هذا ما نطلب عرضه عبر الشواهد المســتخرجة من كلامه(ص). ساعيين للإجابة عن الأســئلة التالية: ما مكانة الكناية عند النبى(ص) وكيف كان يستخدمها؟ ما هى الكناية التى يستخدمها النبى(ص) أكثر، وما الســبب فى ذلک؟ وكم كانت تســاعد هذه الكنايات لتقريب المعنى إلى ذهن المستمعين؟

وبالنســبة لخلفية البحث الذى اخترناه فنقول إنّه لقيت دراســة الحديث النبوى من الوجهة البيانية بعض الاهتمام عند علماء الأدب والبلاغة، منهم: "الجاحظ" (ت٢٥٥ق) الذى يأتى فى كتابه "البيان والتبيين" بنماذج من أحاديثه(ص)، ويقارن بينها وبين أقوال بعــض الشــعراء، مقرّراً من خلال ذلــک فضل كلامه(ص) على كلام غيره من البشــر. و"الشّريف الرّضى" (ت٤٠٦ق) الذى يعدّ كتابه "المجازات النبوية" محاولة رائدة لدراسة الأحاديث النبوية من الوجهة البيانية، ويمتاز بســهولة العبارة، والإيجاز، وقد اســتعمل بعض المصطلحات البيانية مثل التشــبيه والمجاز، والاســتعارة، والكناية دون التعرّض لما يدخل تحت كلّ مصطلح من المصطلحات الســابقة من أقسام، وكان يستحسن بعض الأنواع البيانية مثل الاســتعارة. و"ابن رشيق القيروانى" (ت٤٦٣ق) الذى استشهد فى كتابــه "العُمْدَة" بكلام النــبى(ص) على القواعد التى يضعهــا، ولم يكن يعمد إلى تحليل النّص ودراســته بيانياً، وإنّما كان كلامه موجزاً، وقد ثنى بيان النبى(ص). و"عبد القاهر

الجرجانى»″ (ت٤٧١ق) الذى استشـــهد بالحديـــث النبوى، وقد أتى بأحاديث كثيرة فى كتابه ″أســـرار البلاغة″. أمّا كتابه ″دلائل الإعجـــاز″ فأحاديثه قليلة. و″ضياء الدين بن الأثير″ (ت٦٢٢ق) الذى استشـــهد فى كتابه ″المثل الســـائر فى أدب الكاتب والشـــاعر″ بالحديث النبوى كثيراً، واعتبر أنّ الحديث النبوى هو آلة من آلات علم البيان. إنّ هذه الدراسات تجدر الإشادة والتنويه. لكننا قمنا بدراسة خاصة ″للكناية″ فى الكلام النبوى حتى نبيّن على قدر استطاعتنا نبذة من البلاغة النبوية، فقد التزمنا بجمع المادة الكنائية، وتحققنـــا من صحـــة النصوص، وقد ذكرنا نصوص الأحاديث التـــى تتعلّق بفنّ الكناية، ورجعنا إلى مواضع الأحاديث فى ″المشـــكاة المصابيح″ و″المجـــازات النبوية». نفرض أن اســـتخدام هذا الفن والفنون البلاغية الأخرى فى كلام من كان يخاطب العرب التى تخضع لســـلطان اللسان أكثر من سلطان الســـنان كان من أبرز عوامل سيادة النبى(ص) على القلوب ونجاحه فى رسالته.

فن الكناية[1]

إنّ علمـــاء البيـــان اتفقوا على أن الكناية لاتنـــافى إرادة الحقيقة، وهذا صحيح، بيد أنّ بعـــض البلاغيين أجازوا الجمعَ بينهما وإرادتهمـــا معاً، وذلک فى مثل قولهم: ″طويل النجـــاد″ إذ يكـــون المراد طول النجاد مع طـــول القامة. إنّهم متّفقـــون على أنّ الكناية لاتنـــافى إرادة الحقيقـــة، ومختلفون حول جواز وقوعهما معاً، فظاهر كلام الســـكاكى فى بعـــض المواضع يوحى بجواز ذلـــک، وظاهر كلام الخطيب عدم جواز ذلک، بيد أنّه عاد وذكر ما يفيد جواز ذلک.

نجد فى الحديث التالى جواز إرادة الحقيقة والمجاز معاً:

– قال رسول الله(ص): «**مَن مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلاَّ للهِ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٣٨٨/٣)

١. الكناية لغةً: التكلّم بما يســـتدلّ به على شـــىء ولم يصرّح بذلک الشىء. (المعجم الوسيط، مادة كنى: ٨٠٢) واصطلاحاً: عند الســـكاكى (ت٦٢٦ق): «هى ترک التصريح بذكر الشـــىء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروک.» (الســـكاكى، ١٩٨٦م: ١٨٩) وعرّفها الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ق) بقوله هى: «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه.» (الخطيب القزوينى، ١٤٠٣ق: ١٤٢)

قوله(ص): "مَن مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ" كناية عن الشفقة والتلطّف إليه، لأنّ مسح الرأس تنبىء عن الرحمة، فهذا كناية عن الصفة ولما لم تكن الكناية منافية لإرادة الحقيقة لإمكان الجمع بينهما فيجوز إرادة معناه الظاهر وهو مسح رأس اليتيم وقرينة عليه قوله: «بِكُلِّ شَعْرَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ» وقد تمتنع إرادة المعنى الأصلى فى الكناية، لخصوص الموضوع. كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَي الْعَرْشِ اسْتَوَي﴾ (طه: ۵)

فائدة الكناية

يرى العلماء أنّ الكناية أبلغ من التصريح، ففى العدول إليها لابدّ من فائدة قد تكون هذه الفائدة المبالغة، أو الرغبة فى العدول عما يفحش ذكره صريحاً، أو التعبير عن حال معينة، أو عن صاحب الحال، أو غير ذلک. ومن العلماء الذين أشاروا إلى هذه الفوائد؛ محمد بن محمد بن عبدالله بن مالک، الذى ذكر بعضها قائلاً: «لا يترک التصريح بالشىء إلى الكناية عنه فى بليغ الكلام إلا لتوخّى نكتة، كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح، أو الذّم، أو الاختصار، أو السّتر، أو الصيانة، أو التعمية، أو الإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالطاهر، أو عن المعنى القبيح باللّفظ الحسن.» (الرافعى، ۱۹۸٤م: ۷۰) فمن فوائد الكناية المشتملة على أسرار بلاغية ما يلى:

المبالغة

إنه يقع فى التعبير الكنائى من المبالغة فى الوصف ما لايكون فى نفس اللفظ المخصوص بذلک المعنى، وذلک كقول عمر بن أبى ربيعة:

بعيدةُ مهوَى القرطِ امّا لِنوفلٍ أبوها وامّا عبدشمسٍ وهاشمِ

(ابن أبى ربيعة، ۱۳۵۳ق: ۲٤۰)

وأراد الشاعر أن يصف امرأة بأنها طويلة، فعدل عن اللفظ الصريح، وجاء بالكناية، ودلّ ببُعد مهوَى القرط على طول الجيد مع المبالغة.

تظهر هذه الفائدة من خلال المثال التالى فى الكلام النبوى الشريف:

قال رسول الله(ص): «مَن ذَبَّ عَن لحَمِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ كان حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ

النَّارِ.» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٣٨٩/٣)

قال الزمخشرى: «إنّه جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان، ولم يقتصر، بل جعلها كأكل لحم أخيه، لأنّه أشدُّ نفاراً من لحم الأجانب، وزاد فى المبالغة حيث جعل الأخ ميّتاً.» (الزمخشرى، ١٤٠٦ق: ٣٧٣/٤) وقوله(ص): "عن لحَم أَخيه" كناية عن الغيبة، لاستعمال التنزيل فيها، وهو قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحجرات: ١٢) كأنّه قيل: من ذبّ عن غيبة أخيه فى غيبته فقد حقّ عليه دخول الجنة، أى فرض الله على نفسه أن يدخله فى الجنة، ويبعده من الجحيم، لأنه أبعد نفسه عما يكون فى قبحه، والاشمئزاز منه كأكل لحم الأخ الميّت. نرى فى هذه الكناية المبالغة التى تساعد فى تقريب المعنى المتوخّى إلى ذهن المستمعين، وهو التشجيع على الابتعاد من الغيبة التى تعدُّ من كبائر الإثم.

الإيجاز

– قال رسول الله(ص): «**مَن كان لَهُ حَمُولَةٌ تَأْوِى إِلَى شبَعٍ، فَلْيَصُمْ رَمَضَانَ حَيْثُ أَدْرَكَهُ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٦٢٩/١)

قال القارى: «الحَمُولَة: كان ما يحمل عليه من إبل وحمار وغيرها. والمعنى: تؤوى صاحبها أو بصاحبها، يعنى: من كان له حمولة تؤويه إلى حال شبعٍ ورفاهيةٍ، ولم يلحقه وعْثَاءُ السفر، ولامشقة رمضان، فليَصُم رمضان. والأمر فيه محمول على الندب.» (القارى، ١٣٩٠ ق: ٢٧٨/٤)

قال الطيبى: «عبّر النبى(ص) عن رفاهية الحال، وعدم المشّقة بهذه الألفاظ البليغة، فخصّ لفظ "الحَمُولَة" ليدلّ على قوة الظهر وسهولة السير ووصفها بالإيواء لصاحبها إلى الشبع، فدلّ على بلوغ المنزل، بحيث تمكن من تهيئة طعام يكفيه، ومسكن يبيت فيه، ولله درُّهُ من كلام فصيح، حاول نوعى الإيجاز والإطناب، والمعانى الكثيرة حوتها هذه الكناية الموجزة.» (الطيبى، ١٤٢٥ق: ٢٣١/٢)

ويبدو أن النّبى(ص) كان يستخدم الكناية عن الصفة أكثر من الكنايات الأخرى؛ لأنه(ص) كان يبتغى إيصال الصفات المندوبة إلى المخاطبين، وهذا ما يتحقق عبر استخدام هذا النوع من الكناية أكثر. وفى الحديث المذكورة آنفاً نجد أنّ استخدام كلمة

"الحمولة" رغم قصر لفظها تدلّ على المعانى الكثيرة التى أشـير إليها أى إنّه من كان فى رفاهية فعليه صوم رمضان. وهذا الإيجاز حصيلة اسـتخدام لفظ رغم كونه قليلا يحتوى على المعانى الجمّة.

التصوير

إنّ الكناية تظهر المعانى فى صورة المحسوسات، فتجعلها ملموسة ومشهودة، وتصوّرها واضحة بيّنة. تصوير المعانى وتجسيدها من سمات الكناية، وقد تبيّن ذلک عند هذا الحديث:

– قال رسول الله (ص): «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضَبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوضَّأْ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٤١٤/٣)

قال الزمخشرى: «قوله: "فَإِذَا غَضَبَ أَحَدُكُم فَلْيَتَوضَّأْ" أراد أن يقول: إذا غضب أحدكم فليسـتعذ بالله من الشيطان الرجيم. مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿**وإِمَّا يَنْزَعَنَّکَ مِنَ الشَّيطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (الأعراف: ٢٠٠) فممّا فسر به النزغ: اعتراء الغضب.»

صوّر النبى(ص) حالة الغضب، ومنشـأه ثم الإرشـاد إلى ما يسكنه، فذكر أنّ منشأ الغضب هوحثّ الشيطان، وأنّه مخلوق من النار، وبما أن النار تطفأ بالماء فعلينا أن نتوضّأ حال الغضب، لكون الماء مطفأ هذه النار التى اشـتعلت فينا. إن الوضوء مركب معجون من الماء الحسى والمطهر المعنوى المؤثر فى الظاهر والباطن، وهذا من طب الأنبياء الذى غفل عنه الحكماء.

التعبير عن اللفظ القبيح

ذكر المبرد فى كتابه الكامل: «إنّ الكناية تأتى على ثلاثة أضراب، وذكر منها: التعبير عن اللفظ الخسـيس المفحش إلى ما يدلّ على معناه من غيره، واعتبر هذا الضرب من أحسنها.» (المبرد، ١٩٩٠م: ٥/٢-٦) ويرى ابن سنان الخفّاجى: «أنّ حسن الكناية عمّا يجب أن يكنّى عنه فى الموضع الذى لا يحسـن فيه التصريح أصل من أصول الفصاحة.» (الخفاجـى، ١٤٠٢ق: ١٦٣) إنّ الكناية يتضمّن التحرّز عن التصريح بما لايحسـن ذكره صراحة، كما ترى فى قول أعرابية حينما لدغتها عقرب، وصرخت صرخة فسألها أبوها عن السـبب: قالت: «لدغتنى عقرب» قال لها: «أين؟» قالت: «الموضع الذى لايضع فيه

الراقى أنفه.» (فاضلى، ١٣٨٦ش: ٢٩٢)

هناک أمثلة فى الكلام النبوى الشـــريف تفيـــد الكناية فيها التعبير عن اللفظ القبيح، منها ما يلى:

- قال رســـول الله(ص): «**إِذَا اسْـــتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِن نَوْمِهِ، فَلاَ يَغْمِسْ يَدَهُ فى الإِنَاءِ، حَتَّى يَغْسِلَهَا، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى أَيْنَ بَاتَتْ يَدَهُ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١/ ١٢٥)

من فوائد الحديث اســـتعمال ألفاظ الكنايات فيما نتحاشـــى من التصريح به، حيث قال: "لاَ يَدْرِى أَيْنَ بَاتَتْ يَدَهُ" ولم يَقُل لعلّ يدَه وقعت على نجاسة، كناية عن وقوع اليد على ما يتجنب النبى (ص) عن التصريح به. نرى أن الكناية المستخدمة فى الحديث هى الكناية عن الموصوف أى الشيء المتجنّس. أشير إلى مكان الشيء المتجنس باستخدام كلمة تنبى عن المكان، وهى "أين".

التعبير عن حال صاحبها

أى تصوّر الكناية المســـتخدمة صورة المكنّى عنه كلـــوحٍ أمام الرائى،كما ذكر ذلك عند الحديث التالى:

- قال رَسُـــول اللهِ(ص): «**مَن تَرَکَ لُبْسَ ثَوْبِ جَمَالٍ تواضعاً وهُو يَقْدِرُ عَلَيهِ كَسَـــاهُ اللهُ حُلَّةَ الكِرَامَةِ، ومَن تَزَوّجَ للهِ تَعَالَى تَوَّجَّهُ اللهُ تَاجَ المُلْکِ.**» (المصدر نفسه، ٢/ ١٤٦)

قولـــه(ص): "تَاجَ المُلْکِ" كناية عـــن إجلاله وتوقيره، أى يُعطى يـــوم القيامة تاجاً ومملكـــة فى الجنة. يظهر فى الحديث تصوير المتـــزوّج لله كمن يتوّج بتاج الملک فى كونه موقّراً وصاحب شأن عظيم. حاله عند الله كحال من توّج تاج الملک. فكما يكون الملک صاحب شأن وقدر عظيم عند الآخرين، المتزوج لله حتى شأنه أفضل منه؛ لأنّه صاحب شـــأن وقدر رفيع عند من بيده ملكوت الســـماوات والأرض، فقدره أرفع وشأنه أعظم. هذا يشـــير إلى أنّ كلّ عمل إن كان لله وفى ســـبيله فهو باق وأجره عند الرازق المتعال الذى يرزق من يشاء بغير حساب.

التعبير عن الزجر

الزجر على سبيل الكناية يكون أبلغ، وتأثيره فى النفوس أوقع، كما فى هذا المثال:

عن أبی ذر قال: «أَوْصَانِی خَلِيلِی: أَنْ لاَ تُشْرِکَ بِالله شَيْئَاً، وإِنْ قُطِّعْتَ وحُرِّقْتَ. ولاَ تَتْرُکْ صَلاَةً مُتَعَمِّدَاً، فَمَن تَرَکَهَا مُتَعَمِّدَاً، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ.» (المصدر نفسه، ١٨٣/١)

قــال الطَيْبِیّ: «قوله: "فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ" كناية عن الكفر تغليظاً وزجراً.» (الطيبی، ١٤٢٥ق: ٨٧٤/٣)

أی: ترک الصلاة تعمّداً يسـّبب زجر البراءة وامتناعهـا وبُعدها عن تارک الصلاة. صوّرت فی هذا الحديث البراءةُ كمن يزجر ويردع نفسه عن الآخرين. من لا يُقبَل ذمّته هو الكافر ولاغير، وسبب عدم قبول الذمة هوالكفر. وعبارة "فَقَدْ بَرِئَتْ مِنهُ الذِّمَّةُ" كناية عن كون المبرَّی عنه كافرا. لأنّ الذمّة قد ازدجرت منه، وابتعدت نفسها عنه فهو كافر.

تقسيم الكناية باعتبار الوسائط

للكناية تقســيم باعتبار الوســائط أو اللوازم، فقد تكون الكناية تعريضاً، أو تكون تلويحاً، أو رمزاً، أو إيماءً. فقد ذكر الســكاكی قائلاً: «ثم إنّ الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة.» (السكاكی، ١٩٨٦م: ١٩٠)

فيما يلی نعرض شواهد هذه الأقسام فی الكلام النبوی الشريف:

التعريض

هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق نحو:« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.» (المصدر نفسه: ١٩٤) وذكر العلماء التعريض، وبيَّنوا فائدته وقيمته الأســلوبية، والتعريض عندهم يؤخذ، ويســتفاد من السياق والقرائن، وأغراضه متعــددة، منها: الذم، والتوبيــخ، والتحذير لمن تلاعب بدينه، أو غرّته الدّنيا، أو أمن مكر الله، وقــد يأتی التعريض عندهم لتنويه جانب الموصوف. (الســيوطی، ١٣٥٨ق: ٦٣/٢) يتعرّض بعضهم للفرق بين الكناية والتعريض، منهم ذكر العماری فی كتابه "البيان" فروقاً بين الكناية والتعريض وهی:

- إنّ الكناية تكون فی المفرد، والتعريض لايكون إلاّ فی المركب.
- وهی مستفاده من اللفظ، وهو مستفاد من السياق والقرائن.
- وهی معدودة مجازاً أو واســطة بين الحقيقة والمجاز، وهو لا يوصف بحقيقة ولا

مجــاز، لأنه ليس من مدلول اللفظ، وإنما يجبى على هامشــه وهو يرى التعريض أعمّ من الكناية. (العمارى، ١٩٨٠م: ١٨٤)

وقد ذكروا شــيئاً فيما إذا كان التعريض يأتى على ســبيل المجاز، منهم الســكاكى الذى قال: «إنّ التعريض تارة يأتى على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز. فإذا قلت: آذيتنى فســتعرف وأردت المخاطب ومع المخاطب إنسانا آخر معتمداً على قرائن الأحــوال كان من القبيل الأول، وإن لم تردد إلا غير المخاطب كان من القبيل الثانى.» (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٤)

ومن أمثلة التعريض عند النبى(ص) ما يلى:

– قال رســول الله(ص): «**مَن شَــهِدَ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيکَ لَهُ وأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، وأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ، وابْنُ أَمَتِهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، ورُوحٌ مِنــهُ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّــارُ حَقٌّ، أَدْخَلَــهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كان مِــن العَمَلِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ١٥/١)

قال القارى: قوله(ص): "وأَنَّ عِيسَى عَبْدُاللهِ ورَسُولُهُ" تعريضاً بالنصارى، إيذاناً بأنّ إيمانهم مع القول بالتثليث شرک محض لايخلّصهم من النار. ذكر "عَبْدُهُ فى عِيسَى عَبْدُاللهِ" تعريض بالنصارى، وقولهم بالتثليث، وذكر "رسوله" فى نفس العبارة، تعريض باليهود فى إنكارهم رســالته. قوله(ص): "وابْنُ أَمَتِهِ" تعريض بالنصارى، وتقرير لعبدية عيسى(ع) أى: هو عبدى وابن أَمَتى، كيف تنسبونه إلىَّ بالبُنُوَةِ؟» (القارى، ١٣٩٠ق: ١٠١/١) نرى أن القسم الأول من الحديث المذكورة "مَن شَهِدَ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيکَ لَهُ وأَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ ورَسُــولُهُ" تعريض بالمسلين علاوة على ما ذكر فى كلام الشيخ القارى حول القسم الثانى من العبارة التى كان تعريضا بالنصارى واليهود.

– قال رســول الله(ص): «**يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عنهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ وتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٨٢/١)

عبــارة: «تَحْرِيفَ الغَالــينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلــينَ وتَأْوِيلَ الجَاهِلــينَ» تعريض باليهود وتحريفهم وتبديلهــم التوراة وتأويلها بالباطل وعُدُول بنى اســرائيل، هم اليهود الذين حرّفــوا كلام الله حســب هواهم، لقوله تعالى: ﴿**مِــنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُــونَ الْكَلِمَ عَن**

مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (النساء: ٤٦)

التلويح

عرّف السكاكی هذه الكناية بقوله: «فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنّى عنه متباعدة، لتوسّط لوازم كما فی: "كثير الرّماد" وأشباهه، كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً، لأنّ التلويح هو أن تشير إلى غيرک عن بُعدٍ.» (السكاكی، ١٩٨٦م: ١٩٤)

ومن أمثلة هذه الكناية فی الكلام النبوی ما يلی:

– جاء فی حديث نُهی عن الشرب فی الفضّة حيث قال (ص): «فَإِنَّهُ مَن شَرِبَ فيهَا فی الدُّنْيا لَمْ يَشْرِبْ فی الآخِرَةِ.» (الخطيب التبريزی، ١٤٠٥ق: ٤٨٣/١–٤٨٤)

قوله(ص): "لَمْ يَشْرِبْ" كناية تلويحية عن كونه جهنمياً، فإنّ الشّرب من أوانی الفضّة من دأب أهل الجنة، لقوله تعالى: ﴿قَوارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ (الإنسان: ١٦) فمن لم يكن هذا دأبه لم يكن من أهل الجنة، فيكون جهنمياً. فالمسافة بين ما ذكر فی الحديث وهو "لَمْ يَشْرِبْ" وما يقصد النبی(ص) مسافة بعيدة.

– قال رسول الله(ص): «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتَ الَّذِی يُقْرَأُ فيهِ سُورَةُ البَقَرَةَ.» (الخطيب التبريزی، ١٤٠٥ق: ٦٥٤/١)

أی: لا تكونوا كالموتى فی القبور عارين عن القراءة والذكر، غير منفرين للشيطان. أمرهم على قراءة القرآن، والعمل به، والتحرّی فی استنباط معانيه، والكشف عن حقائقه، بحيث يصير ذا جدّ وحظّ وافر من ذلک، مراغمة للشيطان، فقوله: "لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ" كناية تلويحية عن هذه المعانی.

الرّمز

عرّف السكاكی هذه الكناية عندما قال: «وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء كنحو: "عريض القفا" و"عريض الوسادة" كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً، لأنّ الرمز هو أن تشير إلى قريب منک على سبيل الخفية.» (السكاكی، ١٩٨٦م: ١٩٤) وعرّف السيوطی الرّمز بأنّه: «ما يشار به إلى المطلوب مع قلّة الوسائط، وخفاء فی الملزوم.» (السيوطی، ١٣٥٨ق: ١٠٣)

نأتى بمثالين من الحديث النبوى الشريف فى هذا الصدد:

– قال رسول الله(ص): «**المُؤَذِّنُونَ أَطْـولُ النَّاسِ أَعْنَاقاً يـومَ القِيامَةِ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٢٠٧/١)

حول قوله: "أَطْولُ النَّاسِ أَعْنَاقاً" قال البغوى: «قال ابن الأعرابى: معناه أكثرهم أعمالاً، يقال: "لفلان عنق من الخير" أى: قطعة. وقال غيره: أكثرهم رجاءً، لأن من يرجو شيئاً طال إليه عنقه، فالناس يكونون فى الكرب وهم فى الروح يشرئبون أن يؤذن لهم فى دخول الجنة. وقيل معناه: الدّنو من الله تعالى. قيل معناه: أنهم يكونون رؤساء يومئذٍ، والعرب تصف السادة بطول العنق. وقيل: الأعناق: الجماعات، يقال: "جاء عنق من الناس" أى: جماعة. ومعنى الحديث: أن جمع المؤذنين يكون أكثر، فإن من أجاب دعوتهم يكون معهم.» (البغوى، ١٣٩٠ق: ٢٧٧/٢–٢٧٨)

وطويل العنق هنا، أيما كان معناها من المعانى والتفاسير المذكورة، كناية عن الفضل كما يكون عريض القفا كناية عن الحمق.

– قال رسول الله(ص): «**يَا أَهْلَ القُرْآنَ! لاَ تَتَوسَّدُوا القُرْآنَ، وَاتْلُوهُ حَقَّ تِلاَوتِهِ مِن آنَاءِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ**». (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٦٧٦/١)

يردّد قول الرسول الأكرم(ص): "**لاَ تَتَوسَّدُوا القُرْآنَ**" بين الكناية الرمزية، والكناية التلويحية، فقوله هذا يحتمل الوجهين:

- **أحدهما**: أن يكون كناية رمزية عن التكاسل، أى: لاتجعلوه لكم، وسادة تنامون عليه، بل قوموا به واتلوه حق تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.
- **ثانيهما**: أن يكون كناية تلويحية عن التغافل، فإن من جعل القرآن وسادة يلزم منه النوم، فيلزم منه الغفلة، يعنى: لاتغفلوا عن تدبر معانيه، وكشف الأسراره، ولا تتوانوا فى العمل بمقتضاه، والإخلاص فيه.

الإيماء

الكناية الإيمائية هى كناية قَلَّت وسائطها بلا خفاء. كما جاء فى بيت البحترى:

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقَى رحلَه　　فى آلِ طلحـةَ ثمّ لم يتحـوَّلِ

(البحترى، ١٣٠٠ق: ٢٣٤)

ومن شواهد هذا النوع من الكناية فى الكلام النبوى ما يلى:

– قال رسول الله(ص): «**مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً، أَويَزْرَعُ زَرْعاً، فَيأكُلُ مِنه إنسَانٌ، أَو طَيْرٌ، أَو بَهِيمَةٌ، إلاَّ كانتْ لَهُ صَدَقَةٌ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٥٩٥/١)

فى قوله: "مَا مِن مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً" نكّر مسلماً، وأوقعه فى سياق النفى، وزاد "مِن" الاستغراقية، وخصّ الغرس والزرع، وعمّ الحيوان ليدلّ على سبيل الكناية الإيمائية على أنّ أىّ مسلم، سواء كان حرّاً أو عبداً، مطيعاً أو عاصياً، يعمل أىّ عمل من المباح، ينتفع بما عمله أىّ حيوان كان، يرجع نفعه إليه ويثاب عليه.

تقسيم آخر للكناية

قسم البلاغيون الكناية بحسب المعنى الذى تشير إليه إلى ثلاثة أقسام، وهى: الكناية عن الصفة والكناية عن الموصوف والكناية عن النسبة، وهى المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف. (السكاكى، ١٩٨٦م: ١٩٠-١٩٢)

ما نشرحها فى الكلام النبوى هو النوع الأول والثانى حسب تعريف السكاكى.

الكناية عن الصفة

المراد بالصفة الصفة المعنوية لا النعت. أما أنواع الصفات التى يكنى عنها فهى متعددة، فمنها صفات تتعلق بأمور الدين، ومنها ما يتعلق بالأخلاق والفضائل، ومنها ما يتعلق بالصفات الحسية والنفسية للإنسان وغير ذلك. وقد وجدنا أمثلة عدة لهذا النوع من الكناية، بقصد إظهار بعض كنوز البلاغة النبوية التى تناثر الحديث عنها فى بطون أمّهات الكتب، وفيما يلى مثالين منها:

– قال رسول الله(ص): «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ أَتَاهُ مَلِكَانِ أَسْودَانِ أَزْرَقَانِ. يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَر ولِلْآخَرِ: النَّكِيْرُ.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٤٦/١-٤٧)

قول النبى (ص): "أَتَاهُ مَلِكَانِ أَسْودَانِ أَزْرَقَانِ" كنايةٌ عن شدة الغضب.

قال الشراح: «أراد بالسِّواد: سوادُ منظرهما، وبالزُّرقة: زرقة أعينهما. ذلک لما فى لون السّواد وزرقة العين من الهول والنكير. الزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب، لأنّ الروم أعداؤهم، وهم زرق العيون، ولذلک قالوا فى صفة العدو: «أسود الكبد، أزرق

العــين» ويحتمل أن يكــون المراد قبح المنظر وفظاظة الصورة، يقــال: «كلّمت فلاناً فما ردّ علــى ســوداء ولا بيضاء» أى: فما أجابنى بكلمة قبيحة ولاحســنة. والزرقة تقليب البصــر وتحديد النظــر، يقال: «زرقت عينه إذا انقلبت وظهــر بياضها.» وهى كناية عن شدة الغضب، فإن الغضبان ينظر إلى المغضوب عليه شزراً بحيث تنقلب عينه.» (الطيبى، ١٤٢٥ق: ٥٩٣/٢)

- قــال النبى(ص): «**إِنَّ الجَنَّةَ تُزَخْـرفُ لِرَمَضَانَ مِن رَأْسِ الحَـوْلِ إِلَى حَوْلٍ قابل. قــال(ص): فَإِذَا كان أَولَ يَوْم مِن رَمَضَــانَ هَبَّتْ رِيْحُ تَحْتَ العَرْشِ مِن ورَقِ الجَنَّةِ عَلَى الحُــورِ العِيْنِ، فَيَقُلْنَ: يا رَبِّ! اجْعَلْ لَنَا مِن عِبَادِكَ أَزْواجاً تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنِنَا، وتَقَرُّ أَعْيُنِهِمْ بِنَا.**» (الخطيب التبريزى، ١٤٠٥ق: ٦١٣/١-٦١٤)

يــردّد قوله: "تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنِنَا" بين الكنايــة والحقيقة، فهو «إما من القرّ: البرد، أو من القرار.» (الراغــب الإصفهانى، ١٣٨٣ق: مادة: (قرّ)). (قرّ فى مكانة يقر قراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً وأصله من القر، وهو البرد.)

فالأوّل: كناية عن الســرور والفرح، وحقيقته: إبراد الله دمعة عينها، لأن دمعة الفرح والسرور باردة.

والثّــانى: عبارة عن بلــوغ الأمنية ورضاه بهــا، لأنّه من فاز ببغيته تقرّ نفســه، ولا تستشرف عينه إلى مطلوبه لحصوله.

الكناية عن الموصوف

قــال الخطيب القزوينى: «هو الكناية التى مطلوب بها غير صفة ولانســبة، فمنها ما هى معنىً واحدٌ، كقوله:

الضاربين بــكلّ أبيض مخذمٍ والطاعنين مجامــع الأضغان

كناية عن القلب، أو إذا كان المكنّى عنه شــيئاً محسوســاً أوملموساً أوشخصاً، كقوله تعالى: ﴿**وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْواحٍ ودُسُــرٍ**﴾ (القمر: ١٣) كناية عن السفينة، ومنها ماهى مجموع معانٍ كقولنا كناية عن الإنســان: حىّ مســتوى القامة عريض الأظفار، وشرطها الاختصاص بالمكنّى عنه.» (الخطيب القزوينى، ١٤٠٣ق: ٣٩٩)

وفيما يلى مثالين لهذا النوع من الكناية فى الكلام النبوى الشريف:

– قال رسـول الله(ص): «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوْبِقَاتِ**» وذكر فی آخر الحديث: «**وقَذْفُ المُحْصِنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ.**» (الخطيب التبريزی، ١٤٠٥ق: ١/٢٢–٢٣)

قوله: "الغافلات" كناية عن البريئات، لأنَّ البری، غافل عما بهت به من الزّنا.

– قال علی(ع) عن رسـول الله (ص): «**يُوْشِكُ أَنْ يأتِی عَلَی النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَبْقَی مِنَ الإِسْلَامِ إِلاَّ اسْمُهُ، ولاَ يَبْقَی مِنَ القُرْآنِ إِلاَّ رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وهِیَ خَرَابٌ مِنَ الهُدَی، عُلَمَاؤُهُمْ شَرٌّ مَن تَحْتِ أَدِيْمِ السَّمَاءِ مِن عِنْدِهِمْ تَخْرُجُ الفِتْنَةُ وفيهِمْ تَعُودُ.**» (المصدر نفسه، ١/٩١)

قولـه (ص): "هِیَ خَـرَابٌ مِنَ الهُدَی" أی: من ذی الهـدی أو الهادی، لأنه لو وجد الهادی لوجد الهدی، فأطلق الهدی وأريد الهادی علی سبيل الكناية، وهو يحتمل معنيين:

- **أحد هما**: أنّ خراب المسـاجد من أجل عدم الهادی، الذی ينتفع الناس بهداه فی أبواب الدين، ويرشدهم إلی الخير.
- **وثانيهمـا**: أن خرابهـا لوجـود هداة السـوء، الذين يزيغون النـاس ببدعهم وضلالهم، وتسميتهم بالهداة من باب التهكّم.

نفـرض الوجه الثـانی أولی، وينصر ما فی الحديـث وهو قوله: "عُلَمَاؤُهُمْ شَـرٌّ مَن تَحْتِ أَدِيْمِ السَّـمَاءِ"، فالعلماء هم الهداة، وهم موجودون، إلاّ أنهم ابتعدوا عن تطبيق ما يعرضونه للناس، فصاروا هداة سوء فضلّوا وأضلّوا.

النتيجة

الكناية من الفنون البيانية التی تسـتخدم فی كلام الفصحاء والبلغاء البارعين لكثرة تأثيرها وقلّة ألفاظها، وكما نعلم خير الكلام ما قلّ ودلّ. قمنا فی هذه المقالة بدراسـة الكنايـة بفروعاتها كما وردت فی أمهات الكتب البلاغة، وأعددنا فروعها، وقسـمناها إلی عدة أقسام، وذكرنا أمثلة من الكلام النبوی لكلّ منها. نظراً إلی مكانة الكناية عند النبی(ص) لكونه من الفنون البيانة الهامة والمؤثرة علی المسـتمعين أشرنا إلی دراسات عن البيان النبوی التی قام بها عدد من العلماء منهم الجاحظ البصری والشريف الرضی والجرجانی، وقد أشدنا بمسعاهم فی هذا المضمار. ووصلنا إلی:

١– أنّ استخدام هذا الفن والفنون البلاغية الأخری فی كلام من كان يخاطب العرب

التى تخضع لسلطان اللسان أكثر من سلطان السنان كان من أبرز عوامل سيادة النبى المرسل(ص) على القلوب ونجاحه فى رسالته.

٢- أنّه نظراً إلى الكمّ الكثير من الكناية المستخدمة نستنتج أنّه(ص) كان يعلم مكانة هذا الفن، ومدى تأثيره فى المخاطبين.

٣- أنّ الكناية عن الصفة هو أكثر الكنايات المسخدمة عند النبى(ص)، والسبب فى ذلك كثرة تأثير هذا النوع من الكناية على المستمعين أنها تصور أمامهم الصورة الحقيقية لما تحتوى عليه.

٤- أنّ تأثير الكناية أكثر من الصور البيانية الأخرى؛ لأنها تشمل الوجهين الحقيقى والكنائى، وهذا ما يساعد لتقريب المعنى وتفهيمه بصورتين مختلفتين حسب إدراك المستمعين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن الأثير. (١٣٨٣ق). النهاية فى غريب الحديث والأثر. ت طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحى. الطبعة الأولى. لا مك: دار إحياء الكتب العربية.

ابن كثير. (١٩٩٥م). البداية والنهاية. الطبعة الثالثة. بيروت: دارالكتب العلمية.

ابن منظور الإفريقى، جمال الدين محمد بن مكرم. (١٣٨٨ق). لسان العرب. لا مك: دار صادر.

البحترى، الوليد بن يحيى. (١٣٠٠ق). ديوان. الطبعة الأولى. قسطنطنية: مطبعة الجوائب.

البغوى، حسين بن مسعود بن محمد الفراء. (١٣٩٠ق). شرح السنة. ت شعيب الأروناؤوط وزهير الشاويش. الطبعة الأولى. لا مك: المكتب الإسلامى.

البيومى، محمد رجب. (١٤٢٦ق). البيان النبوى. الطبعة الأولى. بيروت: دارالوفاء للطباعة والنشر.

الجرجانى، عبد القاهر. (١٤٠٣ق). أسرار البلاغة. ت: هـ. ريتر. الطبعة الثالثة. بيروت: دار المسيرة.

ـــــــــــــــ (١٣٩٨ق). دلائل الإعجاز. ت السيد محمد رشيد رضا. لامك: دار المعرفة.

الجندى، على. (١٣٨٦ق). فن التشبيه. الطبعة الثانية. لامك: مكتبة الأنجلو المصرية.

الخطيب التبريزى، محمد بن عبدالله. (١٤٠٥ق). مشكاة المصابيح. ت محمدناصر الدين الألبانى. الطبعة الثالثة. لا مك: المكتب الإسلامى.

الخطيب القزوينى، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن. (١٤٠٣ق). الإيضاح فى علوم البلاغة. ت.عبدالمنعم خفاجى. الطبعة الخامسة. لا مك: دارالكتاب اللبنانى.

ــــــــــــــــــــــــــــ(١٩٧٨م). التلخيص فى علوم البلاغة. ت عبدالرحمن البرقوقى. لا مك: دار الفكر العربى.

الخفاجي، عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان. (١٤٠٢ق). سر الفصاحة. الطبعة الأولى. مكة المكرمة: دار الباز.

الراغب الاصفهاني، حسين بن محمد. (١٣٨٣ق). المفردات في غريب القرآن. ت صفوان عدنان داوودي. الطبعة الثالثة. لبنان: دار الكتب العلمية.

الرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقرى الفيومي. (١٩٨٤م). المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. بيروت: المكتبة العلمية.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر. (١٤٠٢ق). أساس البلاغة. ت عبدالرحيم محمود. بيروت: دار المعرفة.

ـــــــــــــــــــــــ (١٤٠٦ق). الكشاف عن حقائق غوامض التنزل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ت مصطفي حسين أحمد. بيروت: دارالكتاب العربي.

السكاكي، أبويعقوب يوسف بن أبي بكر محمد. (١٩٨٦م). مفتاح العلوم. بيروت: المكتبة العلمية الجديدة.

السيوطي. (١٣٥٨ق). شرح عقود الجمان في المعاني والبيان. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

الشريف الرضي، محمد بن حسين. (١٣٩١ق). المجازات النبوية. ت طه عبد الرؤوف سعد. الطبعة الأخيرة. مصر: شركة مصطفي البابي الحلبي.

الطَيْبِيّ، الحسين بن عبدالله. (١٤٢٥ق). شرح الطَيْبِيّ على مشكاة المصابيح المسمّي بالكاشف عن حقائق السنن. تحقيق د. عبدالحميد هنداوي. الطبعة الثانية. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفي الباز.

العماري، علي. (١٩٨٠م). البيان. القاهرة: مكتبة الجامعة الأزهرية.

عمر بن أبي ربيعة. (١٣٥٣ق). ديوان. الطبعة الأولى. بيروت: المطبعة الوطنية.

فاضلي، محمد. (١٣٧٦ ش). دراسة ونقد في مسائل بلاغية هامة. مشهد: نشر دانشگاه فردوسي.

القاري، علي بن سلطان محمد. (١٣٩٠ق). مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. باكستان: المكتبة الإمدادية.

المبرد، أبوالعباس محمد بن يزيد. (١٩٩٢م). الكامل في اللغة والأدب. بيروت: مكتبة المعارف.

مصطفى إبراهيم والزيات أحمد حسن وعبد القادر حامد والنجار محمد علي. (١٩٨٥م). المعجم الوسيط. قطر: إدارة إحياء الثراث الإسلامي بدولة قطر.